

الفصل الثامن والعشرون

العرب في أسبانيا

بنو أمية

٣٦٦ — ٤٢٨ هـ ، ٩٧٦ — ١٠٣٧ م

هشام الثاني — المهدي — سليمان — عبد الرحمن
الرابع — محمد الثاني — هشام الثالث

تولية هشام الثاني — الحاجب المنصور — مؤامراته — قبضه
على السلطة — انتصاره على قبائل النصاري — وفاته — خلافة
ابنه المظفر — حكومته — وفاة المظفر — الحاجب عبد الرحمن —
المهدي — تنازل هشام الثاني عن العرش — الفتك بالمهدي —
ثورة قرطبة

ترك « الحكم » العرش لابنه الوحيد هشام الذي لم يكن قد جاوز الحادية عشرة بعد ، وكان قد تدرع بجميع الوسائل في حياته لكي يضمن لابنه الخلافة ، وقبل أن تدركه المنية ببضعة أشهر عقد مؤتمراً حضره جميع الأشراف ورجال الدولة الذين حلفوا يمين الطاعة لهشام ، كما وقعوا على الوصية التي أسند فيها الخليفة ولاية العهد إلى ابنه المحبوب . ولما كان « الحكم » على فراش الموت عهد بالعناية به إلى الحاجب المصحفي وإلى وزيره محمد بن أبي عامر ، وبذلك اعتقد أن ابنه الطفل سينجح في حكمه تحت وصاية أمه الماسكة صبح — وكانت حازمة نافذة العزم — بمساعدة وتمضيد هذين الخادمين الوفيين ، فبيع هشام بمقتضى وصاية أبيه بالخلافة ولقب « بالمؤيد بالله » ؛ غير أن الخليفة المتوفى كان قد أساء التقدير ، ووثق كثيراً بمحمد بن أبي عامر الطموح النفس ، إذ لم ينقض طويلاً وقت حتى عزل الحاجب المصحفي والأشراف الذين كانوا يعترضون على توليته ، كما قتل

بعض الولاة والأعيان ؛ « ولما أفنى جميع من يصلح للرئاسة »^(١) قبض على السلطة وحجب الخليفة الفتي في قصره ، ومنع رجال الدولة من الاتصال به إلا في الأعياد أو الحفلات الرسمية حيث كانوا يؤدون طاعتهم ويخرجون على الفور . وبعد أن استولى على الوزارة وتلقب « بالحاجب المنصور » أمر ببناء مدينته المعروفة بالزهراء ، « كما نقش اسمه على العملة ، وصدرت الأوامر والمراسيم بختمه ، وقرن اسمه باسم الخليفة في خطبة الجمعة » ؛ وبعد أن تخلص من المنافسين والمرشحين للرئاسة وجه التفتاته للجيش فأعاد تنظيمه ، وأقصى العنصر العربي وأحل محله جنود البربر المرتزقة الذين كان يستطيع الاعتماد عليهم ، « كما أقصى زعماء العرب عن مناصبهم »^(٢) ، ويقول ابن خلدون : « إن المسلمين بقيادته غزوا اثنتين وخسين غزوة لم ينكسر له فيها راية ولا قل له جيش » .

وكان الجلائقة والبشكنس على أثر وفاة الحكم قد شقوا عصا الطاعة على العرب واستأنفوا حروبهم ، فبدأ المنصور (كما يجب أن نسميه الآن) حروبه بغزو ليون ونافار وأخضعهما وجعلهما ولايتين تابعتين له ، ثم سار بجيشه إلى كتالونيا وخرب برشلونة وطرد منها الأمراء الفرنسيين ؛ وهكذا امتدت حدود الإمبراطورية للمرة الثانية إلى ما وراء جبال البرنيه ، كذلك نال نجاحاً كبيراً في المغرب الأقصى ، فأخضع قواده قسماً كبيراً من أفريقيا الغربية . وفي سنة ٩٩١م فكر في مشروعه الجريء بجعل منصب الحجابة وراثياً في عائلته ، وكان يود لو يستطيع أن يزيج ابن حبيبته من العرش وينادي بنفسه ملكاً حقيقياً (Dejure) على البلاد ، ولكنه كان يخشى الشعب الذي كان يحرص كل الحرص على شرعية وراثته العرش ؛ ولعل الأشراف كانوا يرون في تغيير الأسرة المالكة فائدة لهم ، غير أن الشعب وبالأخص أهل أسبانيا الأصليين كانوا يرون

(١) ابن خلدون .

(٢) ابن خلدون .

غير ذلك ، « إذ كان حب العائلة المالكة قسماً من كيانهم لا يقل عن عاطفتهم الدينية ، ومع أن البلاد قد ازدهرت في عهد المنصور ازدهاراً لم يسبق له مثيل قط ، إلا أن الشعب مع ذلك كان يكرهه لأنه كان يخشى عنهم الخليفة ويستأثر بالحكم دونه » ، ولما كان عالماً بهذا الشعور وليس له أمل في تغيير الأحوال إلا بمضى الزمن ، فقد اكتفى بإعلان ابنه عبد الملك خلفاً له في الوزارة بتصديق الخليفة ولقبه في سنة ٩٩٦ م « بالسيد » والملك الكريم .

توفي الحاجب المنصور سنة ١٠٠٢ م ودفن^(١) بمدينة سالم ، ولم يسبق أن هاب مسيحيو الشمال أمراء الأندلس مثلاً هابوا الحاجب المنصور ؛ وكان شهماً شجاعاً قوى النفس ذا عقل وشجاعة ، فاستمال الجند وأحسن إليهم ونظم الجيش على أحسن نظام وترتيب ، « وبذلك أكسب أسبانيا قوة لم تعرفها من قبل حتى في عهد عبد الرحمن الثالث^(٢) » ، ولم يكن ذلك كل أعماله التي قام بها نحو الشعب بل كان فوق ذلك يعطف على أحرار الفكر والفلاسفة ، ولم يتردد قط في حمايتهم دون أن يجرح أو هام المتعصبين ، فازدهرت في حكمه الزراعة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب وفاضت خزائن قرطبة بالأموال ، وكانت أيامه أيام نفاخ وظفر وسعادة ورخاء ، وبالرغم من أنه استخدم في نيل سلطته أساليب غير شريفة فمن الواجب أن نعترف بأنه استخدمها في سبيل الخير العام .

وفاة الحاجب
المنصور
١٠٠٢ م

ولما توفي المنصور خلفه ابنه عبد الملك في منصب الحجابة وتلقب « بالمظفر » وجرى على سنن أبيه في سياسة الدولة ، ونال عدة انتصارات على القبائل المسيحية ، وكانت ولايته عهد سلام ورغد أو « أعيادا ومواسم » كما يصفها مؤرخو العرب

الحاجب
عبد الملك المظفر

(١) وكتب على قبره هذان البيتان :

آثاره تنبئك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحصى الثغور سواء

(المغرب)

(٢) دوزى .

ومع ذلك كان بنو عامر غير محبوبين من الشعب ؛ ولو أنهم اكتفوا بحكم البلاد باسم الخليفة لظلوا في الوزارة مدة طويلة من الزمن ، غير أن طموحهم الوثاب لم يعرف حدوداً يقف عندها ، فلم يرموا إلى الاستيلاء على السلطة الحقيقية تحت ظل العرش فحسب ، ولكنهم طمحووا أيضاً إلى الاستيلاء على العرش نفسه ، فاكتمسبوا بذلك عداوة أمراء البيت المالك وجميع الأمويين ، وأقصوا الفقهاء وباعدوا الشعب ، وفي نفس الوقت أدى التغيير الذي طرأ على شبه الجزيرة منذ تولية الناصر إلى تحبيذ نشوب الثورة الداخلية ، وذلك أن المجتمع العربي « بفضائله وأخطائه » أخذ في الاختفاء ؛ وتم توحيد الشعب الذي كان غاية الناصر والحاجب الأكبر ، غير أن هذا التوحيد تم على حساب العناصر الأرستقراطية القديمة التي لحق بها الخراب والاضمحلال ، فأخذت تتوارى بسرعة ، واهت من ذاكرة الناس بالتدريج الأسماء التاريخية المشهورة . ومع أن كبار الدولة الذين كانوا مرتبطين بالبيت الأموي بالولاء قاوموا تلك الهزة العنيفة ، وحافظوا على ثروتهم ونفوذهم ، إلا أن قواد البربر والصقالبة الذين أثروا في عهد الحاجب المنصور كانوا أقوى الناس شكيمية على الإطلاق . وقد خلق التطور المادي طبقة اجتماعية جديدة وهي الطبقة الوسطى الثرية والتجار والطبقة العاملة ، كل هؤلاء شرعوا يلعبون دوراً خطيراً في اقتصاديات البلاد ، غير أن هذه الثروة خلقت صعوبات جديدة بدأت بالكفاح بين الطبقات ، ويستطيع المرء أن يتصور في مرآة تاريخ تلك العصور كل المتاعب التي تصادف سياسي مصر الحاضر ، وهي النفور المتبادل بين رجال الجيش والمدنية ، والبغضاء التي يحملها المستخدمون إلى أصحاب الأعمال ، وحسد العامة للطبقة العليا ، ففي عاصمة الأندلس كانت الأحوال الاجتماعية قد بلغت حداً يخشى منه إذا حصلت أقل فتنة صغيرة أن تؤدي إلى كفاح نحيف بين الأغنياء والفقراء ، « إذ كانت قرطبة وقتئذ عبارة عن مصنع هائل يزخر بألوف المال المتهيشين عند أقل سانحة

أن يهبوا جميعاً لإعلان الثورة التي تجلب لهم الفنائم والكنوز ، غير أن الطبقات الفنية أدكت الخطر المحدق بهم لوتنادوا في بغض بنى عامر»^(١) .

وفاة المظفر

وبوفاة المظفر في زهرة شبابه^(٢) حلت الكارثة التي كان يخشاها البعض ويتمنى وقوعها البعض الآخر ، وهكذا سقط بنو عامر من شاهق عزمهم ، ولكن سقوطهم كان كسقوط شمشون الجبار الذي قوض بسقوطه دعائم الإمبراطورية خلفه أخوه عبد الرحمن المسمى سانكول^(٣) ، وكان يكرهه الشعب لنفسه ومجونه ، ولكنه كان برغم ذلك طاغية يستأثر بالسلطة ، فاستقر رأيه على المناذرة بنفسه خليفة ، فأجبر هشام الثانى أن يوليه عهده ، وكان لاغتصابه ولاية العهد على هذا النحو أثر عظيم في قرطبة . فلم يكد سانكول يغادر العاصمة لقمع إحدى الفتن في الشمال ، حتى وثب أمير من بنى أمية يدعى هشام على قرطبة ، ثم نفذ الثوار إلى قصر بنى عامر (الزهراء) ونهبوه ثم أشعلوا فيه النار ، وتنازل هشام إلى محمد بالخلافة ، ولقب « بالمهدى » ، ثم عزل سانكول من ولاية العهد والوزارة ، وسرى الحاس من العاصمة إلى الولايات ، وأخذ الناس يتطوعون في جيش المهدى ، كما حصل في الثورة الفرنسية ، وانضم تحت لوائه أفراد الطبقة الوسطى أو رجال الشعب من أطباء وقضاة وسروجية ، وانقض الناس من حول سانكول الذى أسروقتل ؛ غير أن الخليفة الجديد لم يبق في الحكم طويلا إذ لم يلبث أن جلب سحق جميع الأحزاب بسوء تصرفه ، فتخلى عنه البربر وولى مكانه خليفة آخر كان هو أيضاً من الأسرة الأموية واسمه سليمان ،

(١) دوزى .

(٢) ذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٢٥) عن سبب وفاته أن أخاه عبد الرحمن سمه في تفاعلة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخوه مما على الجانب السموم وأخذ هو ما على الجانب الصحيح فأكله بحضرته فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فات .

(المرب)

(٣) ويسميه العرب سانجول ، ويقول دوزى إنه كان يسمى سانكو الصغير أو سانكول لأن أمه كانت ابنة سانكو ملك نافارا أو كونت قشتالة .

وأصبحت قرطبة الآن مسرحا للاضطرابات المروعة ، واستعمل فيها الطرفان أروع ضروب السفك . ولما هزم المهدي أخرج هشاما الثاني ووضعه على كرسى الخلافة ، واستنصر سليمان عندئذ مسيحي قسطنطينة وليون ، بينما استنجد المهدي بالكتالونيين ، وهكذا فى خلال بضعة أشهر منذ وفاة المظفر أخذ المسلمون يستنجدون بالجلالة والقبائل الأخرى بعد أن كانوا يملون إرادتهم عليهم ، وقد اشترط هؤلاء فى مساعدتهم أن يردوا لهم كافة البلاد التى كان الناصر والحاجب الأكبر قد استولوا عليها ، فاسترد المسيحيون على هذا النحو زهاء مائتى مدينة وقلعة ، ووقعت قرطبة فريسة بين رجال سليمان والمهدي اللذين أخذوا يستوليان عليها بالمناوبة ويعملان فيها معاول النهب والتخريب ؛ وفى تلك الأثناء أصيبت مدينة الزهراء التى شيدها عبد الرحمن الثالث بأخطار فادحة ؛ وأخيرا قتل المهدي ، فألقى سليمان القبض على « هشام » المسكين ؛ ولم يعرف ما حل به الدهر ، إذ يقال فى رواية إنه قتل ، بينما يقال فى رواية أخرى إنه غادر إلى مكة ، أما المختصب الذى لقب « بالمستمين بالله » فلم يتمتع بثمره انتصاره طويلا ، إذ نجم عن ثورة أخرى انهيار سيادته وقتله . وعندئذ لم يلبث أحد أفراد الأئمة الإدريسية أن استولى على الحكم ، ولكنه قتل بعد مدة وجيزة ، وخلفه أخوه القاسم ، وكانت إدارته مشربة بروح العدل والإنصاف ، ولكن البربر تخلوا عنه بعد مدة غير طويلة ، ودارت بينه وبين ابن أخيه معارك رائعة أسفرت عن إقصائه من قرطبة ، وعندئذ نصب القرطبيون أحد أمراء البيت الأموى فى كرسى الخلافة ، غير أنه مع ذلك لم يبق طويلا فى الحكم ، فأعقبه أمويان آخران ختمت بهم الأسرة الأموية ، وعلى هذا أذعن قرطبة إلى يحيى بن على ابن حمود ردحا من الزمن ، وبعد اغتياله سنة ١٠٣٥ قامت جمهورية فى المدينة حتى قوض أركانها ملك أشبيلية بعد أربعين سنة .